الدكتور السعيد الورقي

إيقاعات حزينة من زمن الموت

قصص قصيرة

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - إسكندرية

ايقاعات حزينة من زمن الموت

الدكتور السعيد الورق

الأعمال الكاملة
(٣)

إيقاعات حزينة من زمن الموت

قصص قصيرة

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - إسكندرية
ت : ٤٨٣٠١٦٣

صدرت الطبعة الأولى ١٩٨١

نالت هذه المجموعة جائزة الكويت للتقدم العلمى
فى القصة القصيرة عام ١٩٨٢

إلى الموت ...

الحق والمطلق ...

هذه الايقاعات ،

الحزينـــــة .

السعيد الورقى

يناير ١٩٨١

«مادامت كل الطرق ستقود إلى اللامكان، فإنه

لايهم أي الطرق نختار لنلقي فيه بنشاطنا وفعاليتنا » .

ـ سارتر ـ

معزوفـــــة

آه يادفء اللحظات الرطبة ... ياشوق الأيام ... ما أمتع لقياك مصادفة ، كما تفارقنا مصادفة ... بك تكتمل المتعة ... اللحظة،والشوق ، والشمس المزدهرة . شيء رائع ، أن تتلألأ الشمس بعد ظلام وشتاء ... تتلألأ معها الأشواق ، تطفح بالذكريات واللحظات .

آه ، ياشوق الأيام ... كيف كنا ، وكيف أصبحنا ... آن للمسجون أن يحطم الملل ، والبحث عن الجديد شاق ... يحتاج إلى إمكانات من الصعب توافرها ... هذه أيام لاتوفر سوى الكآبة والقلق ... بسخاء تجود بها ... فى لحظات التألق الدافئة ، ينتعش الحنين للحظات خلت ...

الأيام السابقة ، عمرت السماء بسحب سوداء ، حبلى بأمطار كثيفة ومستمرة ، شعر معها بالبرودة تتخلل عظامه رغم كل الملابس ... شاخت اللحظات ، ومرت بثقل كريه ، الصداع المستمر ، وعدم القدرة الجيدة على الإبصار ،

وفقدان الاتزان ... والسماء لاينقطع ماؤها ، وشمسها الشاحبة مختفية فى وديان أخرى غريبة .

كان المنزل هو المقر ... أن تجلس ، تتكلم أو لاتتكلم ... كان عليك أن تبحث عن مخرج لأمور كثيرة ... فقدت كل الأشياء بهجتها منذ أمد طويل ... تتغلب على الأزمة بلحظات التسكع وممارسة تجارب المتجول ... والبحث عن الجديد دأب المتعب .

ماذا تصنع فى لحظات المواجهة مع المألوف ... وسنوات العمر ضاعت ... ذقنك نمت ، ونمت ... عمل مرهق وعجيب ، أن تزيلها لتنمو من جديد ... آه ، سيزيف ... يالعبة الآلهة وامتثال الضعيف .

من العبث أن تحاول جدية التفكير فى الأمر ... عليك ممتثلا أن تقوم باعداد ماكينة الحلاقة والشفرة ، وتقوم بهذه العملية ذات التفاصيل المتعددة المراحل . بعدها ستنمو من جديد ، وتعيد الكرة ... اللعنة على كل الأشياء .

اليوم سطعت الشمس وتلألأت ... معها سطعت الذكريات ، محملة بإرتعاشة مخدرة ... آه ، ياحنين الأيام ... أين توهج اللحظات والكلمات والنظرات والسكنات ؟ ما أروع اللحظة بلقاء مصادفة ، وجلسة فى أحضان

الشمس ، تجلو عن النفس صدأ الأيام ، وتعمر القلب بزاد من التوهج الخاطف .

قدماك وسيلتاك ، ولتضرب فى الطريق ، لتعيد استكشاف كل شىء ... والرفقة متروكة للصدفة ... بحاجة أنت إلى ارتعاشة جديدة ... فى جدتها يكمن توهج الأشياء .

قدماك دابتان طيعتان ... لكن من الأفضل أن تترك لهما الزمام ، تنقلانك من مكان لمكان ... وعلى الشمس أن تظل ساطعة الإشراق ... ولتأت اللحظات بما تكتشفه ... ترى أين هى الآن ... لقد كنت موفقاً ... أنهيت الأمور قبل أن تصل إلى لحظة ملل ... ذهبتما ، ولاتزال النفس عامرة بالأشواق ... كانت طيعة ... تعطى ، وتعطى وتعطى ، بلاحدود ... وكنت نهما ، تريد أن تحصل كل الأشياء فى لحظة ... ترى ماذا يحدث لو ألقتها الصدفة الآن أمامك ... لاتعرف ... الأمر متروك لها ... ترى ألا يزال فى قلبها شىء ؟ .

تجلسان فى الشمس المتلألئة ، تبتسمان ، وتنطقان معا ، تتحدثان فى أمور كثيرة ، أغلبها تافه ... كيف كنا وكيف أصبحنا ...

ما أروع أن يحدث هذا ... من مكان إلى مكان تنقلك قدماك ... والشمس تشعلك نشاطاً وتوهجاً ... أين أنتِ يالحظات التوهج ... والأمل الباسم من عينيك يتقافز ،

عصفورة متقافزة ... أيامها الأخرى ... كانت متقافزة مثلها ... لقاءات سريعة عابرة ، لم يتبق منها فى الذاكرة سوى الضئيل .

لم تعرف عنها الكثير ... عصفورة كانت ... تتملص فى خفة سريعة ، وتعود فى سرعة خاطفة ... لقياك متعة ، وحديثك أمتع فى لحظات الدفء المنتشرة ... لاتعرف كم من الوقت مر وأنت فى تجوالك ... تركت الساعة قبل أن تبدأ الرحلة ... لكنك خفيف ، خفيف ... رائع ، البعث للحظات عامرة بالرعشة المقدسة ، وبالمفاجأة ... نسيم طيب يهفهف على القلب ... ينتعش ... يشعر براحة غامرة ... يتبخر صهد الأيام ...

حقاً ما أروعك أيتها العشتروتية ... كل مافيك كان ينطق بالرغبة ... النظرات الشبقة تقفز من عينيك ... تتحدى الأيام ، وتتحدى الانسان ، وتتحدى وتتحدى ، وتتحداك ... حقاً تتحداك ...

فى جوفك كادت الرغبة أن تعصف بك ، وتملكتك ثورات عارمة ، واشتعلت الأشياء فى داخلك ... كانت دافئة ، دافئة ... دافئة ... فى حضنك ياعشتروت ، ضاع الخوف والرجاء ، وانمحى الأمل ؛ كان عليك أن تقف قليلا ،

تسترد انبهارك ولهاثك المتقطع ... يانبض الأيام . آه ، يانبض الأيام .

قدماك تسيران ... تبحث عن أشياء لاتعرفها ... وسيلتنا الجوال . إن ضاق بك الطريق ، عليك بنفسك ... اكتشف ، واكتشف ... حقاً ، والانبهار يأخذك ... يالها من مفاجأة .. لأول مرة تكتشف هذا ... لقد كانت صاحبة المنزل ... حقا ... لحظتها لم تدرك أنت هذا جيداً ... لم تكن أساليبك لتعينك على الفهم الدقيق لوقائع الأشياء ...

تجلى ياتفاصيل المواقف ... لاشك أنها كانت تقصد حقا ، كيف كنت غبيا يافتى . جميل ورائع أن يستعيد الذهن هذه الأشياء ... كم مر عليها ... سنوات ، وسنوات ... كنت طفلاً ساذجاً يومها ... سألوك ماذا صنعت بابنتهم ... حكيت لهم كل شيء بتفاصيله و ... سميت الأشياء بأسمائها ... يومها ضحكوا ، وضحكو ... عجيب أنك لم تذكر هذه الواقعة سوى اللحظة .. وسابقتها كذلك ... بين الإثنتين أكثر من عشرة أعوام ...

آه يامستودع أسرار الكون ... ألا يزال فى جعبتك الكثير ... هاتها ، ولتتوهج شمسك وشمس الأيام ...

تطمع فى مفاجأة أكبر ... هات ، ولتحدث المعجزة ، ولتتجسد كل الأشياء ، وليخرج مخزون الأيام ...

أما آن لك أن تعود ؟ ... سؤال سخيف قفز فجأة ... هكذا ، تأتى السخافات ... تمردت دابتاك اللحظة ... المنزل مثوى الآلام والأحزان والبلادة ... وعليك ياسيزيف أن تدفعها عاليا ، وتعيد الدفع ... هكذا ...

آه يامنزل الرغبات الموءودة ، فى مدار العادة ... مجرد تأدية واجب ... تخلو اللحظات من رعشة التوهج ، تتجمد ... ممارسة شاحبة المعالم ...

آه يامنزل الصقيع والغمام والمطر ... تموت كل يوم ... كل لحظة ... فى كل كلمة تقولها ... ونظرة منكرة ، تطل من عينيك الحزينتين ... تضيع لحظة فلحظة ... وليلك الطويل ياشتاءنا الحزين مثقل بالبرد والأسى ... ورحلة قصيرة المدى فجأة تموت ... قبل المولد ... تجهض .

ملعونة أشياؤنا ملعونة أيامنا ... هيه : يا أتعس الغرباء فى مدينة الدمى .

هوامش متداخلة

فى الصباح ، تأخر فى اليوم على غير عادته وعندما أرادوا أن يوقظوه ، لم يستيقظ ... كان قد مات .

★ ★ ★

فى الاجتماع الأخير ، حسده الموجودون على ضحكاته المجلجلة ... قال هم من خلال مرحه المتواثب ... إننا لازلنا فى بداية الطريق ، ولابد أن نعمل ونعمل ... ومن ناحيتى أنا ، فقد قررت أن تكون الأيام المقبلة عملا بلا توقف ... وسوف نقوم ... سوف نعمل ... وضحك ضحكة عالية ، نظر بعدها فى ساعته ، ثم نهض معتذراً بموعد هام أصبح وشيكا .

عندما وصل متلهفا ... جال فى أرجاء المكان ... لم تكن قد جاءت بعد ... جلس وطلب قدحاً من الشاى ، أشعل سيجارة ونظر إلى الساعة ... تقدم به العمر قليلا ... مضت

الأيام دون أن يشعر بها ... وعلى كل ، لابأس ... فسوف يخبرها اليوم بأنه ينوى الاقتران بها ...

الوقت هو الأنسب فعلا ... فمركزه الاجتماعى والوظيفى طيبان ... والمال بين يديه متوفر إلى الحد الذى يمكنه ... والصحة على مايرام ... لم يشك من شيء حتى الآن ... وقطعة الأرض التى شاهدها منذ أسبوع ملائمة لبناء بيت صغير ... الطابق الأرضى بعد الحديقة وحظيرة السيارة ، بهو فسيح يكون كالأستديو ... ثم حجرة الغذاء بجوار المطبخ ، أما المكتبة والمكتب ، وحجرات النوم ، فتكون فى الطابق العلوى ..

إبتسم فى انتشاء مدغدغ ، واتسعت الابتسامة حين رآها مقبلة ... نهض من مكانه وقد بسط يديه ... احتواها بعينيه ، وقد طلت منها سعادة الدنيا ... أجلسها ، ثم جلس قبالتها ... بحنية ربت على كفها ... تأخرت قليلا ... قلقت عليك كثيراً ... لكن الحمد لله ... ها أنت جئت. إبتسمت ، فابتسم .

* * *

من بين أصوات النرد ورشفات الشاى الساخن ودخان النرجيلة ، قال للمحلقين ... ما أجمل أن نحب ، وأن نسعد بمن يحبنا ... وقتها نجد كل شيء رائعاً وجميلا ... سكت قليلا

ثم أردف ... على فكرة ، قررت أن أتزوج.الخطوبة الأسبوع المقبل ، وهذه دعوة لكم ... انتشى خجلا بين العبارات التى تناثرت حوله ... صاح أحدهم ، ألن تلعب الليلة ... هتف ، بلى ، وسأنتصر عليكم أجمعين .

تناثرت قطع النرد ، وإمتلأ الجو بدخان النرجيلات ... عندما أوصلها منذ قليل إلى قرب منزلها ، إستبقى يدها فى يده ... ضغط عليها قليلا ، وهمس ... نملك كل شيء ... الحب ، والأيام ... وسنصنع أشياء باهرة ... سوياً ... سحبت يدها برفق ... إلى اللقاء ... إلى اللقاء ...

إنتهت الجولة ، وكعادته ، دائماً كان الفائز ... قهقه عاليا ... ألم أقل لكم إنى سيد كل المواقف ... لكز الذى إلى جواره ... سجل ياهذا ... إنتصارات فى كل الميادين ... ثم بانتشاء أكثر ... أو تعرفون ؟ ... لقد تم اختيارى عضواً باللجنة الاستشارية ، ومستشاراً للهيئة العامة ...

لم يلبث أن نظر إلى ساعته ... معذرة ، لقد تأخرت كثيراً الليلة ... ينبغى أن أذهب ، ولدى أعمال تستوجب منى التبكير فى الصباح .

★ ★ ★

سأل أول ما سأل عن العشاء ... وعندما وضع أمامه ...

اندفع فى نهم ... بعد كوب الماء الثانى ، التفت إلى أمه ... قررت أن أتزوج ... ما رأيك ... لم ينتظر أجابتها وتابع تناول عشائه ... طيبة هذه الأم ... لابد وأن الدنيا لاتتسع لها الآن ... ها أنت ، أخيراً ، وقد تحقق لك حلمك الأكبر . وستصبحين حماة فجأة .

* * *

قبل أن يأوى إلى فراشه ، تناول المفكرة التى يدون فيها مذكراته ... اليوم ، أصبح رصيدى فى البنك ... تقابلت معها لأول مرة ... أثنى على المدير العام ... ورشحت مستشاراً للهيئة العامة ... اشتريت ملابس جديدة بمبلغ ... تناول قلمه ، وبعد تفكير قليل ... اليوم ، قررت أن أتزوج ... عرضت عليها الأمر ، فتهللت ... قررنا ... أن تكون الخطوبة الأسبوع المقبل ... كان اليوم مشحوناً بالعمل ، ولكن الأشياء الناجحة تنعش القلب ... سأنام الليلة مبكراً ... نظر إلى ساعته ... لدى فى الصباح أعمال كثيرة .

المحـــــاصرة

(١)

« يموت كل شيء »

الماء ، والنبات ، والأصوات ، والألوان .

تهاجر الأشجار من جذورها ،

يهرب من مكانه المكان .

و ... ينتهي الإنسان »*

(٢)

منذ مدة وهي تحاول معي ... لكن الأشياء بداخلي باردة باردة ... واصرارها على المحاولة يبعث القرف . أعرف مقدما كل شيء ، وأحفظ جيداً كل جزء لدرجة النسيان ...

* نزار قباني .

لكنها لا تمل ... ولا تياس .. تظل فى محاولاتها حتى أصل
إلى حالة من التوتر بين ضرورة التأكيد على أن أكون وبين
العجز من الاستمرار فى الممارسة المألوفة ... تقود الأشياء
بداخلى ... بطيئة بطيئة ... وعاجزة ... تحت ثقل الخوف من
العجز . تتم سخيفة وغبية ... بعدها انهض مسرعاً وأنا
اتساءل كيف تمت ؟

(٣)

يجب ، ويجب ، ويجب .. وعليك ، وعليك ، وعليك
... وينبغى ، وينبغى وينبغى ... وتثاقل الألفاظ فى مسمعى ،
فأحس لها بطنين مزعج لا أسمعه ... هكذا صاح الغبى حين
رآنى أمامه ... ماذا يريد بالضبط ؟ أردت أن أناقشه ، ولكنى
استسخفت هذا ... قلت ... فليذهب إلى الجحيم ... تطلعت
إليه فى بلادة وأنا أتمتم ... مضبوط ، وسعادتك ... إن شاء
الله ... ربنا يسهل ... انصرف عنى بعد أن تركنى فى حالة
غير عادية من القرف .

فى يأس أخذت ألملم أشيائى بعد أن بعثرها هذا الغبى ...
ينبغى ، وينبغى ، وينبغى ... عليه اللعنة هو وهذه المقرفات
... الغبى يريدنى أن ... ولكن مادخلى بهذه الأشياء ... دعه
يخرف ... العجيب أنه كما يبدو ، يأخذها مسألة مصيرية ...
يقذف بالكلمات فى تتابع عجيب ، ويتصبب عرقاً لاهثا .

أردت أن أقول له : التحمس للأشياء دليل الغباء ، ولكنى لم أجد مايدعو لهذا ...

(٤)

كان علىّ أن أجالس بعض أولياء النعم ... وان أحسن الاصغاء والايماءة فى حضرتهم ، وكان هذا يعنى مزيداً من القرف الذى يتمدد بداخلى كلما أصغيت لتفاهة الرجال الجوف .

صاح أحدهم من داخل مقعده الوثير ... عندما كنت فى بلاد واق الواق ... كان الرجال ، وكانت النساء ... والشوارع ... و ... و ... ولم يدعه الآخر يتمم ما بدأ ، إذ قالت أنفاس سيجاره الغليظ ... الواقع إن الأمر يحتاج ، ويحتاج ، ويحتاج ... وإن علينا بصفتنا ، وبحكم موقعنا وبطبيعة دورنا أن ، وأن ، وأن ... وسوف أطالب بهذا فى الاجتماع المقبل .

صاحت أفواه الحاضرين بلا حماس ... الصواب نطقت ... وعندما خرج من الغرفة ... ضحكت عيونهم ... النصاب يريد أن يعدل نظام الكون ... اهتبل الفرصة صاحب المقعد الوثير فتابع حديثه السابق ... فى بلاد واق الواق لايحدث هذا مطلقا ، فانك ترى ... وترى ... وترى .

انسحبت بهدوء ، لم يعطه أحد الأفاقين انتباهه ... كان لدى كم هائل من القرف ... أثار أشيائى الداخلية ، فأسرعت إلى دورة المياه .

(٥)

نوم ... واستيقاظ ... وفطور ، وساعات عمل مملة ... وعودة إلى المنزل وغذاء ... وانتظار مقلق ... ونوم آخر بعد العشاء ... وأربع وعشرون ساعة ...ويوم آخر ... سبت ، فأحد ، فاثنين ، فثلاثاء ، فأربعاء ، فخميس ، فجمعة ... ويناير ، وفبراير ، فمارس .

هذا المساء أحسست بشيء غير عادى نسبيا ... كان مقلقا إلى حد ما ... كان اليوم هو الذكرى الأربعين لميلادى ... أربعون عاماً ، ولا أدرى كيف مضت ، ولا كيف تحملتها ... فى الواقع لم يكن لدى منها رصيد ذو قيمة ... كان لاشيء بالمرة ... لاشيء بالمرة ...

كانت الساعة قد جاوزت الثانية عشرة بقليل ، انتهى يوم وهذا المهم ... كم ساعة متبقية على بداية اليوم الآخر ... ساعات ...

كان علىّ أن أدس نفسى فى الفراش ، ولينته يوم آخر ...

أخذت كوباً من الماء ، وذهبت إلى دورة المياه ... وعدت ... إلى فراشى ... لأنام .

* * *

الورطـــــة

الموت فى الميلاد ... أخذت أكرر المقطع لمرات عديدة ... لا أعرف على وجه التحديد أين قرأته أو سمعته ... ولكنه كان يقفز دوماً إلى الحضور فى شكل دوامة تتسع وتتسع ، حتى تتلاشى ... وتعود من جديد مرة أخرى ... الموت فى الميلاد ... كان على أن أذهب منذ الصباح إلى المستشفى ، فزوجتى ستلد اليوم ... وعلى أن أكون على الأقل موجوداً ... هكذا قيل لى ...

لم أذهب إلى العمل كالعادة ... فى المستشفى ، قالوا لى إنها فى حجرة الولادة ... وإن الولادة ستكون سهلة ميسرة ، فالطبيب المولد ماهر ... وأشياء أخرى كثيرة ... جلست فى الردهة ... كانت قد أرسلت منذ أيام تخبر أمها أنها قررت الولادة بالمستشفى ، وتطلب منها الحضور ... لكن أمها لم تحضر بعد ... من ناحيتى ، لم أكن مقتنعاً تماماً بمسألة الانجاب والأطفال هذه ... رأيتها مصرة على هذا ... هى ومالها ...

أعتقد أن الأطفال كائنات مزعجة ، ... لم أشأ أن أقول لها هذا صراحة ... ولا بأس من التضحية قليلاً فى سبيل الابقاء على بعض المصالح .

قالوا لى ... تزوج ... تزوج ... وحاصرتنى الكلمة ... تحت الحاح المحاصرة الضاغط ، قلت : لابأس ، ولنر كيف تكون اللعبة . كانت زميلة لى ، لاحظت أنها مدمنة التطلع إلى ... منظرها يشى بغباء فطرى ... قلت لها ؟.. مارأيك ؟ أتتزوجينى ؟ ... طرفت عيناها لحظات ، وتزوجنا . أتذكر هذا جيداً ... كم كانت الفرحة تتقافز من عين أبى ، ونحن ملتفون حوله وهذا يطلب وهذا يطلب ... وهو يمسح بكفه العريض رؤوسنا ... لقد نسيت أن أسأله بعدها ماذا كان يشعر وقتها بالضبط ... أذكر أن أمى بعد أن كبرنا قليلاً ، كانت تقص علينا نتفا من ذكريات هذه الأيام ، وصدرها يتسع لاستيعاب العالم ... زوجتى هذه التى تستعد لاستقبال وليدها لديها هذا الإحساس ... لا أثقل على الإنسان من محاصرة الواجب ... ماذا سأصنع لها الآن ... لا أنا الذى سيولدها ، ولا أعتقد أنى سأفيدها فى شىء ... لكنهم قالوا ، يجب أن تكون حاضراً ... وأمها لم تحضر بعد ... وليس لها من أقارب هنا ...

على كل ، لقد حضرت ... أخذت أجازة من العمل

وحضرت . كان كل من يرانى يقول لى تزوج ، لم لا تتزوج ... ياأخى تزوج . اسكاتا لهم ، تزوجت ... لم أتوقع منها بالطبع أن تكون شيئا مهما ، وهذا ماحدث بالضبط ... منذ البداية ، أخذت تنسج أشياءها حول الطفل الذى تريده ... لم تمل مطلقا عن ترديد أشيائها الغبية ... اسمه ، تربيته ، تعليمه ، حتي الوظيفة ... اختارتها له ، طبيباً أو صيدليا ... شيئا كهذا ... لا أتذكر على وجه الدقة ... اسكاتا لها ، قلت ... ليكن لها ماتريد ... الحقيقة ، أنها برغم غبائها تجيد أشياء كثيرة ، وتجيد اعدادها فى صمت ... ليس بها من عيب ، سوى هذه الأفكار المزعجة التى تطل من رأسها دوماً ... حينما قالت إنها حامل ... ابتسمت ابتسامة واسعة ... بلعتُ امتعاضى ، ولعنت من كان السبب .

طالت الجلسة ، وأخذت أتصفح وجوه الغادين والرائحين فى الردهة ... بليدة بلاحدود ، وخاملة ... هممت أكثر من مرة أن أستوقف أحدهم لأسأله ... ولكن أرجأت هذا ... لم يكن لدى ماأريد أن استفسر عنه بالضبط .. تململت فى جلستى ... وأنا ماذنبى ... هى التى أرادت أن تلد ، وهى التى تلد ... ماذا على أن أفعل إذن ... اجلس هكذا ... وفى انتظار ماذا ...

استسخفت الموقف ، فاعتزمت الخروج من هذا المكان بعد أن هممت بالنهوض قلت ، لأنتظر قليلا ...

أصر أهلها على الفرح ، وأن أجلس إلى جوارها هكذا أمام الناس وأن أمتثل لعديد من الطقوس ... كانت جلسة شبيهة بهذه الجلسة اليوم ... وعندما انتهى الحفل ونهضنا ... أنا وهى ... أحسست بأنى قد خرجت لتوى من كابوس مخيف . أفقت على يد تجذبنى ... سيادتك أريدك لحظة ... الباقية فى حياتك ... حاولنا المستحيل ، ولكنها ماتت بعد الولادة مباشرة ...

أحسست بدوران ، وعرق متصبب ... ساندنى الرجل وحاولت أن أتماسك قليلاً ... تمتم ببعض الألفاظ ، لم أتبينها جيداً ... ماذا ، سأصنع الآن ؟ ... أتركها فى المستشفى . وأخبر أهلها ... أم أنهم هنا يتصرفون ... عليها اللعنة ... ما الذى جعلها تموت هى الأخرى ... وأنا من ناحيتى لا أعرف كيف أتصرف فى هذا المشكل ... والأدهى أنها تركت هذا الصغير ... ماذا سأفعل به .. هززت رأسى حسرة . وعدت إلى المقعد من جديد وأنا لا أعرف كيف أخرج من هذه المسئولية التى وضعت فيها دون أن أدرى ... الرجل لايزال واقفا ... قلب كفيه بسرعة ، لاشك أنه يريد أن ينهى الموقف بأسرع مايمكن ... لم يلبث أن تمتم بشىء ...

ثم أختفى ... لقد تذكرت ... أعتقد أنى قرأتها فى كتاب ... الموت فى الميلاد ... أظن أنها عنوان قصيدة لشاعر كبير ... أظن هذا .

* * *

محـــــاولة

ألم تقل إنك تحبنى ؟ أليس كذلك ... أجل كانت كذبة ... كنت أكذب عليك ... لستِ متأكداً بالضبط .

لا أعرف بالضبط ، إن كنت قد قلت لها من قبل أحبك أو شيئا من هذا ... لكن ، ربما فسرت سلوكى هكذا .. أعتقد أنى كنت مأخوذاً بالتجربة ... كانت التجربة جديدة وقتها ... لكن ما أذكره تقريبا ، أن الأمر لم يكن يعنى الكثير بالنسبة إلى ... لقد تركت الأمر لها ... كانت تريدنى ، ولم أشعر أن هناك مايمكن أن يحدث ... خاصة لى ـــ على الأقل ـــ ... لذلك لم أبحث الموضوع ... لا بالموافقة ... ولا بالاعتراض ...

ولكنك قلت إنك لن تتركنى !.. والأمر لم يعد فى حدود الاحتمال ... والإنسان عاطفة غير مجدية ، والعلاقات البشرية ممارسة بالتورط ... والاصرار على المحاصرة مثير للقرف ...

ربما قلت هذا ... ولكن ، ماذا تريد بالضبط ... لم أعد أذكر جيداً تفاصيل الأشياء ... التجربة لم يعد بالإمكان استرجاعها ... وأنت الآن تصرين على اعادتها ...

من ناحيتى أنا ، لا أستطيع أن أفعل شيئا ، أو أن أقدم شيئا ... الحقيقة على مايبدو لى ، فأنا لم أقدم شيئا فى زمنها ... الوقت تريدين أن أقدم شيئا .

أو قلت لك هذا ... لا بأس ... لكن الآن لا أريد ... أقول لك ، لنخفف من حدة الألفاظ ... أنا لا أقول أتركك ، بل نترك بعضنا ... هيه ... مارأيك ؟

كان فى الامكان أن أذهب ولا أعود ... هكذا . لكن ... لا أدرى ما الذى جعلنى أطرح موضوعاً منتهياً من ناحيتى للمناقشة ... لنترك بعضنا ... ماذا ؟ ... أقصد لننه مابيننا ...

عادة ينتابنى إحساس حاد بالقرف حينما أشاهد الدموع ... لا أذكر على قدر ما أتذكر أنى تأثرت بها مرة .. لكنها تخلق جواً متوتراً ... أنا أعرف جيداً أن الانسان لايرغب فى فقد كل الأشياء فى لحظة واحدة ... لهذا فأنا لا أضع نفسى فى مواضع كهذه ... لم أحرص مطلقا على أن يكون لى شىء ... لهذا فأنا لا أخشى من فقدان شىء .

الأمر لايحتاج إلى بكاء ، على ما أعتقد ... أعطيتك كل شيء ، وتحملت ، وها أنت .. لم أسمع بقية حديثها ، وأخشى أن يفلت الزمام ... تظن أنها أعطتني ... أنت لم تعطني شيئا ... بالتحديدأعطيت نفسك ... القضية واضحة ... كانت تريد ، فتركتها تأخذ ماتريده ... لكنني أدركت أنه لابد من وضع حل لهذا ... والنقاش دائماً يموع الأشياء ... لم يكن الأمر فى البداية يشغلنى ... كانت تجربة . وكنت فى اللحظات المزعجة أقول سأنهيهما غداً ... لكن لم أكن أفعل شيئا ... كانت هى تفعل كل شيء تقريباً ... وربما بهرتنى تجربة المتفرج قليلاً ... لكننى لا أعرف كيف تتلاشى الأشياء فجأة ...

سأنتحر إن تركتنى ... وربما قتلتك قبلها ... تهديد ذو حدين ... حياتها ، لا أعتقد أن لها أهمية كبرى لدى ... لكن ، أعتقد أن لحياتى بعض الأهمية ... حقيقة ربما لا أكترث كثيراً لمجىء الموْت ... لكن ، ربما إذا فكرت فى الأمر قليلاً ، أجد أنه من الأوفق ألا يحدث هذا .

على قدر ما أرى الأشياء ، أعتقد أنى تمنيت كثيراً أن تكون لى معارف نسائية ... لكن الحقيقة ، لم أبذل مجهوداً فى سبيل ذلك ... هى التى أرادتنى ... هل من الأوفق إذن ، أن أترك الأمور حتى تتركنى هى ... لا أعرف ... ولقد قررت هذا

... ليس بالضبط ... أعتقد أنه من الأوفق أن يحدث هذا ... لكنى لا أعتقد هذا ... لم أطلب منك شيئاً ... لا أكلفك شيئاً ... وهذا حقيقى إلى حد ما ... إنها فعلاً لاتكلفنى شيئا ... لكن ، ألا يمثل الاستحواذ شيئا من هذا ... صحيح أنا لا أملك ما أقدمه لها ولا لغيرها ، لكنى أحس أنها تأخذ منى شيئا ... بصراحة ، لقد زهقت ... لا أعرف بالضبط إن كان هذا هو ماقصدته ، أم لا ... الحقيقة أننى بالرغم من امتلاء شعورى ناحيتها بالاشمئزاز ، لكنى أمارس معها الأشياء على نحو مرض ... أعتقد أنى فى المرة المقبلة يجب أن أكون أكثر حدة ... فلم أكن هذه المرة حازما بالقدر الكافى . على كل ، لقد نقلت إليها شيئا مما بى ... لاشك أنى لم أكن موفقا بالقدر الكافى ... لكن المرة المقبلة سأكون أكثر حزما ... أعتقد أنه ينبغى أن أكون أكثر حزماً .

* * *

العـــودة

(١)

« أعود لأبحث عن موتى .

والمـــوت

هنـــا

والموت

هنـــاك .

فلتصمت ،

سيجىء إليك ، ومن ألف مكان » .

★ من أشعار بلند الحيدرى .

عندمـا سألتنـى لماذا ساخـرج هكـــذا مبكـــرا واليـــوم راحة ، لم أستطع أن أجد الاجابة ... لهذا اكتفيت بالصمت ... حدقت فى وجههما لبرهة ... ثم سحبت نفسى ، وأغلقت الباب .

كانت الشوارع لاتزال تحت سيطرة هدوء الليل ، بعض الباعة المتناثرين ... أكوام الزبالة ... وعدد من القطط والكلاب تجرى هنا وهناك .

أوقفنى بائع الجرائد . ولكنى أشرت له بالرفض ... إلى أين ... لم أحدد فى الحقيقة ... فقط أردت أن أخرج مرة دون أن يكون لدى ما أريد عمله ... يوم الراحة ، غالبا ما أقضيه بين الفراش ، والجلوس فى حجرتى ... لكن الرغبة فى الخروج إلى الطريق بلا عمل ، كانت تراودنى دوما ... أحيانا كنت أمكث فى المنزل مع وجود عمل ينتظرنى بالخارج ، فما المانع فى أن أخرج بلا عمل ...

اليوم عندما استيقظت من نومى مبكراً كالعادة ، قررت أن أحقق هذا ... أن أخرج بلا عمل ... نهضت ، اغتسلت ، وارتديت ملابسى ، وخرجت فى منتصف الشارع ، بدأ التفكير ... إلى أين ؟

(٣)

قرابة العشرين عاماً ... ويوما بعد يوم تقودنى قدماى إلى العمل صباحاً وتعودان بى قبيل العصر . على ما أذكر كنت فى البداية أتسكع على الفترينات ، وانظر إلى مؤخرات النساء ... ولكن الأيام مضت ، ولم يتبق لى سوى مشاهدة قدمىّ تخطوان أمامى فى طريق الذهاب ، وطريق العودة .

(٤)

ماذا لو عدت بالأيام إلى ماوراء ... عصر الفترينات ومؤخرات النساء ... لم تكن المحلات قد فتحت أبوابها بعد ... ولم تكن النساء قد خرجن ... على مبعدة قليلة ، أبصرت مقهى صغيراً ... العجيب أنها كانت المرة الأولى التى اكتشفت فيها وجود المقهى هذا ، رغم العشرين عاما ... وقفت قليلاً ... فى ركن منزو . جلست على حافة المقعد ... كانت المرة الأولى التى أجلس فيها فى مكان عام كهذا ... قدح الشاى الساخن بين يدى ، والدخان المتصاعد منه ... شيئا فشيئا ، بدأت اكتشف ماحولى جيداً ... مطعم صغير ، ورائحة الفلافل والعيش الساخن ... بائعة الجرائد ... تلفت حولى أبحث عن ماسح للأحذية . عامل المقهى أخبرنى أنه لايحضر هكذا مبكراً . رغم أنى كنت قد تناولت فطورى

بالمنزل ، ولكنى اعتزمت أن آكل عيشاً ساخنا وفلافل ، وأن أشترى جريدة كذلك ... كان الشارع قد بدأ يعمر بالمارة .

(٥)

عندما أعود للمنزل كل يوم ... أتناول طعامى وأتظاهر باستماع بعض ماتحكيه زوجتى ... تجذبنى قليلاً مشاجرات الأولاد ... وأحيانا تحاول زوجتى أن تتشاجر معى ... تزعق ، وتثور ... لاتلبث أن تكف ... تقول لى إنى السبب فى كل مالديها من ضغط وأعصاب ، وإنى سوف أقضى عليها قريبا ... غالبا لا أفعل أكثر من النظر إلى قدمى ... زمان ، كنت أحب القراءة ... وكنت أمضى جزءاً لا بأس به من وقتى فى قراءة الكتب والمجلات . أما الآن ، فلا أجد فى نفسى الرغبة لقراءة الجريدة ... أقضى بقية اليوم فى انتظار العشاء والنوم ، فأنا أذهب إلى فراشى مبكراً قليلاً ... فلم يحدث أنى تأخرت للعاشرة .

(٦)

امتلأت المقهى ، واختلطت الأصوات ببعضها ... وازداد عدد المارين ... لم أعد أصلح الآن للبحلقة فى مؤخرات النساء ... زمان ، كانت تسلمنى مؤخرة لمؤخرة ، وكنت

أدور بينها كالتائه ... أما الآن ، فأعتقد أن منظرى يكون غريبا لو فعلت هذا .

أتممت قدحى الثانى من الشاى ... من زمان بعيد ، لم استمتع بشاى كهذا ، رغم أنى أشربه فى اليوم أكثر من عشر مرات ... وبما أطلب ثالثاً بعد قليل . جذبنى صوت نافذة تفتح فى المواجهة ... أطل منها وجه مستدير ... متفتح الملامح ، ألفت مافيها فيروز عينيها ... نظرت قليلاً ... واختفت لحظة ، ثم عادت ... لم تركز بصرها على شيء محدد ... متى قابلت مثل هذه العيون ؟ ... صدئت الذاكرة ، وما عاد بها من شيء ... ولاحتى الزوجة ، ولا الأولاد ... ولا العمل ... حقاً ، هل يمكننى التخلص من هذه الأشياء ؟ وكيف ؟ ... قد استطيع أن أطلق المرأة ، وأن أقدم أستقالتى ، وأن أبدأ من جديد ... السيد المدير العام ... بعد التحية ... يسعدنى أن أقدم استقالتى ... غير آسف على شيء ، إلا على الأيام التى ضاعت من عمرى فى هذا الغباء ... توقيع ... فلان الذى قرف ... والأخرى ... كيف التخلص منها ... كونى طالقة ، وانتهى الأمر ...

ألا يكون من الأفضل ألا أعود للمنزل ، والأمر سيان بعدها ... تلاقت عيناى بعينى المرأة المواجهة غير مرة ... فى كل مرة تدغدغ حواسى ، فأشعر بشيء من التقافز داخلى ...

وفى هزة منتفضة ، أخذت عيناى تجوبان معها فى محاولة لرصد تحركات عينيها ... لكن هل تفتكر أن الأمور سوف تنتهى بسلام ... أرسل لها خطاباً أشرح فيه كل شىء ... وإنى قد ضقت ولم أعد أحتمل ... السيدة الفاضلة ... معذرة ، فلم يعد بالإمكان أن استمر ... لقد ضقت حتى من نفسى ... أرجو ألا تتصرفى بغباء ، وأن تفهمى الموقف بوضوح ... لا أستطيع أن أفعل شيئا ... وداعاً ، ولك الله ...

طلبت قدح الشاى الثالث ... وكيف أبدأ بعد أن أترك البيت والعمل ... لاشك أنى سأبحث عن عمل آخر ، وسأقيم بفندق أو شقة مفروشة ... استبدال عمل بعمل ... وبيت ببيت ... وأكيد صحبة بصحبة وعودة من جديد للمحاصرة ... اختفت امرأة النافذة ... عادت وقد تحلت ببعض الأشياء الأشياء ... ازدادت الرعشة بداخلى ... على أن أحل مشكلات اللحظة ... ولأترك الأيام للأيام ... دغدغت النشوة أطرافى ... انتشيت ... ومنحت عامل المقهى بسخاء ...

أسرعت الخطو إلى المنزل ... أطلقها أولا ، أم أكتب الاستقالة ... يجب أن يتما فى وقت واحد ... وبخفة رشيقة رننت جرس الباب رنينا متواصلاً ... صاحت عندما فتحت الباب بعد لحظة ... ماذا أصابك ؟ ... واندفعت ألفاظها

كالقذائف ... أجننت ... ألا تصبر قليلاً ... لماذا تأخرت ... كاد الغذاء أن يبرد ...

ضاع كل شيء ... النشوة ، والأمل ... همست ، وأنا مطاطيء الرأس ... لارغبة لى فى غذاء ... نظرت إلى قدمى ، تسبق إحداهما الأخرى ... إذا نمت ، فاتركينى حتى الصباح ... أريد أن أصحو مبكراً قليلاً ... على أن أذهب إلى عملى مبكراً الغد ... و ... دخلت حجرتى مهموماً .

★ ★ ★

الموعــــــد

رآها على الجانب المقابل آتية ... اتسعت الفرحة ، وامتلأ بها صدره ، ورفرفت الابتسامة فى جوانبه ... آتيا إليك يافرحة أيامى ... تقافز فى خفة . وقد اتسع صدره للدنيا كلها .

كانت اللحظة خاطفة وسريعة ومتقافزة مثله ... قذفته السيارة أمامها ، وداست فوقه السيارة المقبلة ، وارتفع صراخ حاد وتزاحم بعض المارة .



كان على موعد معها ... بكر بالمجىء ، وانتظر ... حينما تطايرت نسمة هفافة أخذ نفساً عميقا ، احتوى به الدنيا ، واحتواها ... لذلك وجد صعوبة فى أن يخرج هذا النفس من صدره ... ودّلو توقفت الدنيا عند هذا النفس ...

عندما خرجا لأول مرة احتواها بذراعه ، وضغطها كثيراً ، وأحس برغبة شديدة فى أن يشق جوفه ويحتويها بداخله ... هنا الأمان والاطمئنان ... قال لها حين أرادت أن تذهب ... ألا تبقين قليلاً ... عندما تذهبين أشعر أنى تائه ، وأنى فقدت الدنيا بأكملها . وأحس بوحشة جارفة تسيطر على ... ابتسمت ... قالت وأنا أيضا ... قبض على أصابعها فى تشنج ... قال لها ... هل تصدقين إذا قلت لك أنى لا أستطيع أن أسحب يدى ... قالت ... أشعر بهذا . وعندما قالت له إنى أتمنى كثيراً لو جمعنا مكان أجلس فيه إلى جوارك ، وأضع رأسى على صدرك ، وأقول لك كل شيء ... انتشى مهللاً ... يافرحة دنياى ... ودّلو احتضنها فى عرض الطريق .

★ ★ ★

نزل سائق السيارة الأول يلعن ويسب ، وفرد أحد المتحلقين أوراق جريدته على الجثة ... ترددت قليلاً قبل أن تندس بينهم ... لم تدر ماذا تفعل ... ولا أحد يعلم بأمر العلاقة بينهما ... هكذا انتهت اللحظات الطيبة ... سريعة وخاطفة ، وغير متوقعة ... معه أحست بكل شيء ... بنفسها وبالدنيا وأحبت كل الناس والأشياء ... حتى الوحش الجاثم على أنفاسها ... تبخر كل الكره الذى كانت تحتفظ به

مرة واحدة ... عندما قالت له مرة ... أشعر معك بأننى امرأة ، ربت على كتفها بحنان ، ولثم أصابعها فى رقة مدغدغة ... همس لها ... أحبك كثيراً ... قالت له ... أريد أن أحكى لك حلماً ... كنت أسير على حافة نهر عميق عميق ... وكانت مياهه عكرة ... فجأة وجدت نفسى أغوص فى النهر ، وأمامى وحش هائل الجثة ، غليظ المشافر ، يدفعنى بيده حتى لا أطفو ... صاح الوحش مقهقها ... دعينا نستحم معا ... وعندما أسودت الرؤية رأيتك أمامى ... قديساً أبيض يمتطى صهوة جواد أبيض ، وبيده حربة ... غرستها فى صدر الوحش ، ففح فحيحاً رهيبا ... وسال دمه أسود مقرفاً ، وحملتنى بيدك الأخرى ... وذهبت بى بعيداً بعيداً ... ولكننى كنت متخوفة وأنا بين أحضانك ... كنت أتلفت حولى يمنة ويسرة ... ضمها إلى صدره بقوة وهمس لها ... ياحياتى ...

صاح أحد الواقفين ... ألم يعرفه أحد ... أحست أن الحديث موجه إليها هى ... انتفضت قليلاً ، وترددت ... همست وهى تتلفت حولها يمنة ويسرة . لا .. لا أحد .

★ ★ ★

الوســـــام

أحس بالأنظار تحيطه ، جفف عرقه ، جال ببصره بين الناس وانتهى برَجُل المنصة ... تعلقت عيناه به ، والتقطت أذناه بعض الألفاظ ... باسم الهيئة العالمية للفنون ... ضجت القاعة ... لم يكن فى نيته أن يحضر ... حينما تسلم برقية الهيئة بتهنئته بوسام الهيئة العالمية للفنون ، فكر قليلاً ... ربما لأول مرة منذ أن وعى الانتباه ... فنون ، وهيئة عالمية لها ... ووسام ... ربما بدافع التسلية فكر فى حضور المهرجان ... سكرتير عام ، ونائب السكرتير ، ومدير عام ... وكلمات وخطب وتصفيق ...

لم يؤلمه قدر هذا الازدحام ... حاصرته العيون ... توقفت الحركة ، وطالت لحظة الصمت بعض الوقت ... سحب نفسه متجها صوب المنصة ... صافح كل من مد يده ، وقلب الوسام قبل أن يصافح من أعطاه له ... تلفت حوله متردداً ، وغلبته الحيرة ... الجمع ينتظر منه أن يقول شيئا ... ماذا

يقول ؟ ... أيها السادة ... الواقع ... أشكركم شكراً جزيلاً ... ازدرد ريقه قليلاً ، وتلكأ و ... السلام .

حاصرته العيون والأكف ، وأحس بلزوجة عجيبة فى مصافحتهم ... أسلم يده منتظراً الخلاص .

لم يعرف بالضبط الغرض من هذا كله ... لو ظل فى منزله ، فربما كان قد استيقظ من نومه تواً ، أو ربما كان يدخن أو يشرب شاياً ... أو ربما كان لايفعل شيئا ... أفاق على صوت بجواره ... هل كنت تتوقع الوسام ؟ ... السؤال مباغت ... وهل تمنيته ؟ ... من زمن توقفت التوقعات والأمنيات ... وهو صغير تمني أن يحصل على أشياء كثيرة ، أغلبها بسيط وعادى ، وكثيراً ما استوقفته المعروضات ... يذكر جيداً عندما أصبح بامكانه الحصول عليها وتحقيقها ، لم يفكر فيها ... وتقدم العمر ، وتلاشت الأمنيات ... يا أخى فات زمن الأمنيات والتوقعات ... مايأت يأت .. ومايذهب يذهب ...

كان الأوفق ألا يحضر ... والحضور وليد فكرة طارئة ، وفى انتظار أن ينتهى هذا الشيء ، طال الانتظار ، وطال ... وبين يديه وسام الهيئة ... تأمله من جديد ... قطعة معدنية أو فضية نقشت عليها بعض الرسوم والكتابة ... أمن أجل هذا تعقد الاحتفالات ... عندما كان تلميذاً صغيراً منح شيئا

كهذا فى مسابقة رياضية ... يومها احتضنه منتشيا ، وكان يصطحبه معه إلى كل مكان ... أحيانا يتدلى من عروة « بنطالونه » وأحيانا يشخلل به بين أصابعه ... لم يترك زمنها أحداً إلا وأطلعه عليه وسعادة الدنيا تغمر وجدانه ... ترى أين ذهب ؟ ... لايذكر الآن أين انتهى به المطاف فقط يذكر أنه حصل عليه فى زمن ما ... بلا مقدمات ، قلّب الوسام مرة أخرى بين يديه ... مال إلى جاره ... متى ينتهى هذا الشيء ؟ ... قارب الانتهاء ... هل يمكننى إذن أن أنصرف ؟ ... انتظر قليلاً فالحفل حفلك ...

وفى زمن الانتظار ، كل شيء سخيف وغبى ... ماذا سيصنع بهذا الشيء ... قلبه جيداً فى يده ... تدافع الناس من حوله ، فاندفع معهم ... لقد انفض الحفل ، وهذا أروع مافيه ...

على باب القاعة ، استنشق نفساً عميقا امتلأ به صدره ... إنتشى لأول مرة منذ زمن بعيد ، وأسرع الخطو ... ود لو يصيح مهللاً بأى شيء ... وجد نفسه يدندن بأغنية جاءت على خاطره ، وارتفع صوته قليلاً مستطعماً غناءه .

أمام باب منزله ، تقابل مع الكلب الأجرب ؛ كلب البواب . انتشى أكثر للفكرة التى قفزت ، نادى على الكلب مقترباً منه ... نزع الوسام من علبته وتفحص الطريق ...

اقترض من البواب خيطاً علق به الوسام ، وضعه فى عنق الكلب ، بعدُ قليلاً ، وتأمله ... هتف منتشيا ... أليق مكان .

* * *

رحـــــلة

في الشارع

أتلاقى في ضوء الصبح ـ بظلي الفارع ـ

نتصافح بالأقدام *

* * *

الشارع متسع فسيح ، يزدحم بالضجيج ... أحذية كثيرة هنا وهناك ... بعضها متثاقل الحركة ، والبعض سريع ، والبعض متراقص ... أحذية كثيرة ، مختلفة ... ومتفقة .

أنت الآخر محمول على حذاء ... موقعة من سائر الأحذية، لاتعرفه بالضبط ... على كل هذا أمر لا أهمية له ، لكن لاشك أن في حذائك ملامح غريبة ... جديد هو على أرضية المدينة ... سعى منذ هبوطه بلا حماس ... تزاحمت

* أمل دنقل .

الأحذية وتكاثرت ، وليس هناك ماهو أزعج من رائحة العرق البشرى ... والبحث عن مكان حلم ، وللغريب استحالة ...

حقيقة أنت تدرك جيداً أنه ينقصك الحماس ، ولكن ماذا صنع الحماس لأصحابه ... فى المواجهة اصطدمت عيناك بحذائك ... صعدت معه قليلاً ... وجدت نفسك وجهاً لوجه مع نفسك فى المرآه ... انزعجت قليلا ، لاشك أن فى الأمر مايدعو إلى الانزعاج ... وسيطر عليك احساس مبهم مفاجىء ، ومن جديد عاودت الفحص. ربمالايخلو المشهد من طرافة ، لكنها طرافة مزعجة ، فالشىء الماثل أمامك فى المرآه أبعد مايكون عنك ... ربما يشبهك فى أشياء كثيرة ، لكن مما لاشك فيه أنكما غريبان عن بعض .

ابتعدت قليلاً ، وتأملت الآخر مليا ، وأعدت الفحص ... ومن جديد أنكرته ، واستنكرته ، وتراجعت أكثر ... وهذه المرة اصطدمت بشىء خلفك ... تلفت ، ولم تدر ماذا تقول ... الألفاظ المناسبة لا تأتى فى اللحظات المطلوبة ... واللحظة مربكة وغبية ، وحذاؤها لم يتحرك عن موضعه ... صعدت لأعلى ؛ لأعلى ... ساقان ، ذيل فستان ... وببطىء تمتمت بأى شىء ، وقليلا قليلاً ابتلعت بسمتها نظرتك القلقة ... حملقت برهة واستدرت مهرولاً .

★ ★ ★

في المساء عاودك الحنين إلى التطواف الليلى ... بحثت فى الأزقة والطرقات ... هنا الأمر يختلف ، فأغلب الأدوار الأرضية عادة تخلو من السكان . يومها أشبعوك ضرباً ، وكنت منتشيا رغم هذا ، لم تشعر وقتها إلا بمتعة البصاص ، كان بإمكانك أن تجرى منهم ، ولكنك كنت منشغلاً باستعادة المرئيات التى طالعتها من فرجات النوافذ ... هنا النوافذ توصد جيداً فلا يمكنك أن ترى أو تسمع ... حتى حذائك لاتستطيع أن تراه جيداً إلا فى ظلال أنوار المصابيح المتباعدة ، وإن كنت تشعر بوقع خطوه على الأرض ... ترك ، ترك ... ايقاع منتظم ... لتجرب أن تغير خطوتك ... تراك ، تراك ... هذا أبطأ ... ربما يكون الأسرع أوقع ... تك ، تك ... وجدت نفسك هذه المرة أمام شيء ممتد لأعلى ... عمود اضاءة ... صعدت ببصرك حتى قمته ... ركلته بقدمك ، واستدرت عائداً .

★ ★ ★

عندما استيقظت من نومك ، نظرت من ثقب باب حجرتك ... سدت عليك الرؤية عجيزة المرأة صاحبة الشقة ... لم تستطع أن تنظر لأبعد من حديها ... وإلى الأسفل كان شبشبا من النوع الرخيص يتدلى من ساقيها ... تحركى قليلاً عليك اللعنة ، وعلى أمسياتك التى ترقدين فيها كيساً من القطن الغارق فى الماء ...

لذت بأركان الحجرة ... ومن جديد عدت إلى ثقب الباب ... أقدام تتحرك هنا وهنا ... والمشهد فقد مذاقه ...

خرجت ، وصفقت الباب خلفك ... واستقبلتك قدماك تقرع الطريق ... وعند مرآة الأمس توقفت ، ونظرت إلى الشاخص لك ، ومرة أخرى استنكرته مندهشاً ، وقبل أن تصطدم بآخر ، لذت بالفرار .

* * *

بيــن ... بيــن

تناول قرصا مهدئا ، وأطفأ المصباح ... سحب الغطاء فوقه . وتأهب للنوم . كان الوقت متأخراً بعض الشيء . ولما لم تكن به رغبة فى شيء ، فقد رأى أن ينام ، ساد الظلام إلا من علامات هلامية تنداح فى دوائر تبتعد وتقترب من عينيه المغمضتين . وبرغم المهدىء إلا أن النوم لم يتسلل بعد .

ورويداً رويداً ، وفى وسط الدوائر ، رأى نفسه . كان محاطاً بعدد هائل من القطط . فى البداية تعاركت القطط ، تصايحت وتخامشت وعلا صوتها ... كان مواءً عنيفاً وحاداً ومزعجاً ، شعر معه أنه يتضاءل ويتضاءل . وبرغم احساسه بأنه أصبح خفيفا حتى ليستطيع الطير ، إلا أنه كان مغروساً فى الأرض ، نبت لايقتلع .

فجأة هدأت القطط ونظرت إليه فى توجس ... تجرأ إحداها وهجم عليه هجمة دفعته إلى الناحية الأخرى . لم تلبث سائر القطط أن اشتركت فى اللعبة وهو بينها يتدافع من

ناحية إلى أخرى . أحس بدوار ، واختلطت المشاهد أمام عينيه ، ودوامة واسعة وعميقة تجذبه إلى أسفل . شعر بالقطط تقبض على أطرافه وتنزعها . بين تفسخ جسده إلى مزق ، هب مذعوراً على صوت لفأر يعبث أسفل الفراش . احتاج إلى فترة حتى استطاعت يده — التى أراد أن يرفعها — أن تصل إلى مفتاح الكهرباء . وانتشر الضوء فى الحجرة .

كف الفأر ، وتوقف عن عبثه . ولكنه كان يشعر به من أسفل الفراش ، ينتظر اللحظة التى يعاود فيها نشاطه . فتح باب الحجرة ، وبعد مطاردة يسيرة نجح فى طرده خارجها .

تناول قرصا مهدئا ثانياً . ومن جديد أطفأ المصباح ، وسحب الغطاء فوقه ، وتأهب للنوم .

ترامى إلى سمعه صوت رتيب منظم . دقات منتظمة بين الواحدة والأخرى لحظة صمت . كانت الدقات فى البداية خافته بطيئة ، لكنها لم تلبث أن ازدادت وعلا رنينها . تحولت إلى طرقات لها دوى مقبض . حاول أن يحول بين الصوت وأذنه . وضع وسادة فوق رأسه ، ضاغطاً عليها . ضاعف الوسادة ، لكن الصوت هذه المرة انبعث آتياً من داخله ، رتيباً منتظماً ومقلقا . لقد أدرك الآن . كان ينبغى إصلاح هذا الصنبور اللعين . لم يلبث أن شاهد نفسه ينساب من الصنبور قطرة ماء . سقط على سطح الحوض وانزلق إلى فتحته .

انساب من الفتحة داخل الماسورة الضيقة إلى البالوعة . فى قاع البالوعة استقر . بدأت البالوعة تضيق ، وبدأت بعض التحولات تطرأ عليه . لم يعد قطرة الماء التى سقطت من الصنبور ، فقد أصبح هو هو . كان عاريا جاثما على أرض البالوعة ، وكانت أرض البالوعة باردة شديدة البرودة ، وكانت قطرات الماء تهبط على رأسه قطرة قطرة ... جبالاً ثقيلة تدق رأسه بين قدميه كل مرة . أطاحت به مطارق طويلة الأطراف . بين كل طرقة وأخرى تمتد . ترفعه مرة إلى أعلى عاليا ، وتهبط به مرة أخرى بسرعة خاطفة بين ساقيه . وحينما استطاع أن يرفع يده طالباً النجدة ، كانت أصابعه هذه المرة فوق مفتاح الكهرباء . ومن جديد انتشر الضوء فى الحجرة . أزاح الغطاء جانبا . نهض من فراشه وخرج إلى الصنبور . أغلق محبس الماء وعاد إلى الفراش . تناول قرصا مهدئا ثالثاً . اندس فى فراشه وسحب الغطاء فوقه كلية . من جديد حاول النوم . أغلق عينيه ، وانداحت الدوائر الهلامية أمامه . تبدأ صغيرة ، وتكبر متسعة ، وتتلاشى لتبدأ من جديد .

فى داخل الدوائر رأى نفسه عارياً تماماً ومحاطاً بنساء . كن عاريات هن الأخريات . وانبعثت موسيقى صاخبة من مكان لم يره . قامت النسوة بأداء رقصات صاخبة على الايقاعات .

كانت الرقصات أقرب إلى طقوس وثنية . تصاعدت أبخرة عطرية نفاذة ، وانتشرت فى المكان سحابة نصف شفافة . توقفت الموسيقى فجأة ، وركعت النسوة على الأرض . تقدمت إحداهن منه . جذبته ناحيتها . احتضنته . أمطرته بقبلات متلاحقة أفترشت بها جسده . توترت أعصابه وسرت فى جسده رعشة مخدرة ، شعر بعدها باسترخاء ناعس .

وانبعثت الموسيقى من جديد ونهضت النسوة بعد أن انضمت إليهن المرأة . من جديد درن حوله فى رقص عنيف متوتر ومتشنج ، وازدادت كثافة سحابة الأبخرة العطرية . كانت النسوة بداخل السحابة أشباحاً لامعة الأطراف . وحينما توقفت الموسيقى هذه المرة ، رأى نفسه شاخصاً يترقب زفافه الجديد على امرأة اللحظة . نهضت من بين النسوة ، وتقدمت ناحيته . ارتعشت أطرافه قبل أن تصل إليه ، وحينما جذبته ناحيتها ، كان مهيئا للحظة . دغدغت النشوة أعماقه ، وقبل أن يفيق ، تصاعدت الموسيقى ، ودارت النسوة ، وتلبد الجو وتوالت المرات . فى المرة التى لم يعد يعرف ترتيبها ، كانت الرؤية قد استحالت تماماً . وحينما أراد أن ينهض مع ايقاع الموسيقى ، لم تطاوعه ساقاه . كانتا مشلولتين إلى جانبه تماما . استند بيديه ، لكنه كان عاجزاً كلية عن النهوض . أراد أن يصيح عالياً طالباً العون ، لكن الصرخة احتبست داخله ،

ورأى نفسه يغوص ويغوص فى بحر عميق . ورغم إنه كان يغوص باستمرار إلى الداخل ، إلا أن رأسه ظلت طافية على السطح . ظلت صرخته حبيسة جوفه ، وبجهد شاق استطاع أن ينزع الغطاء من فوق رأسه . كان ضوء الصباح قد بدا فى غزو الحجرة ، فأزاح الغطاء جانبا ، ونهض بلا رغبة فى شيء ، بعينين منتفختين .

العنـــوان

خرج من المنزل كعادته صباح كل يوم قاصداً العمل . لم يكن يفكر آنذاك فى شىء محدد . ولأن العمل على مبعدة يسيرة من منزله ، لذلك فهو يذهب إليه سيراً وكذلك العودة . فى منتصف الطريق تقريباً استوقفته فتاة . طلبت منه أن يدلها على عنوان فى ورقة معها . تناول الورقة ، وقال لها إنه ذاهب هناك وتستطيع أن ترافقه فهو ليس بعيداً . سارت الفتاة بمحازاته ولم ير فى نفسه الرغبة فى أن ينظر إليها . بعد بضعة خطوات كان قد قرر أن يصحبها إلى شقته وليكن مايكون . لم يعرف ما الذى أوحى إليه بهذا فلم تكن به رغبة إليها ولا إلى غيرها . على باب الشقة قالت له هل هذا هو العنوان ؟ أومأ برأسه ايماءة بلا معنى . وعندما فتح الباب بمفتاحه ترددت قليلا ، ولكنها سارت خلفه .

جلست على أول مقعد صادفها . وجلس أمامها . نظر إليها لأول مرة . فتاة عادية ، ممتلئة الجسم قليلا . لابد أنها قادمة

من إحدى المدن الصغيرة هكذا يوحى منظرها . طالت فترة الصمت بينهما ، كانت عيناها خلالها ساقطتين عند مقدم حذائها وإن استرقت النظر إليه من لحظة لأخرى . لم يعرف ماذا يقول لها .

كانت تشعر بأنها قد انتهت تماماً . كانت المفاجأة حادة . لم تستطع أن تفعل معها شيئا . زوجها وجارتها الصديقة . أرادت أن تخرج لزيارة صديقة لها . قالت له إنها ربما تتأخر قليلا . لكنها لم تلبث أن عادت لتجد المفاجأة فى انتظارها . أرادت أن تقول شيئا ولكنها لم تستطع ، وانحبست الدموع فى عينيها . هكذا ضاعت سنوات الحب والأمل . توارت الجارة خلفه ، ونظرا إليها فى بلاهة . تسمرت . دارت على عقبيها وخرجت من الشقة . فى الطريق انهمرت دموعها ولم تدر إلى أين تذهب . لم يكن لها أقارب فى البلدة . نزحت إليها مع زوجها من عشر سنين . لم تغادرها فيها سوى مرة واحدة حينما ماتت أمها منذ عام . كانت أمها تأتى دوماً لزيارتها لأنها وحيدتها . بعد تفكير قررت السفر إلى قريبة لها فى الاسكندرية . كانت قد أعطتها عنوانها فى قصاصة . رأتها عندما توفت أمها . ذهبت إلى المحطة وانتظرت فى بوفيه المحطة حتى موعد قطار الاسكندرية . وفى الاسكندرية وصلت مع الصباح .

حاولت أن تنظر إليه . وصلت إلى حال توقفت فيها أفكارها ومشاعرها . نهضت واقفة فنهض معها ، اقترب منها . وضع يده على كتفها اقشعر جسدها وأحست باشمئزاز مقرف . رغم ذلك لم تنسحب ولم تطلب منه أن يسحب يده . اقترب منها أكثر وأحست بأنفاسه تكاد تخنقها . لم يعرف لماذا اقترب منها هكذا . لكنه ماحدث . واندست يده تعبث بجسدها . لم يكن فيها مايثير رجولته ، ولكنه اقترب أكثر محاولاً . نزع عنها ثيابها ، فسقطت بين ساقيها كومة من الألوان ، ونزع ثيابه وألقاها جانبا على مقعد . احتضنها فازادت قشعريرية بدنها . حينما نظر إلى يديه وقد احتوتا ثدييها ، رآهما مثانتين فارغتين تتدليان . ضغط عليها بلا رغبة ، وسقط بها على كومة الثياب . بعد قليل نهض واقفا ونظر إليها بشيء من الدهشة . كانت به رغبة إلى أن يبصق . وأحست هي بحاجتها إلى أن تفرغ مافى معدتها . انطلقا إلى دورة المياه .

لم تقل له . ولم يتكلم . فى صمت مطبق ارتدت ملابسها . أخذت حقيبة يدها . نظرت إليه فى عريه . كان مخلوقاً سخيفاً ، تدلت أطرافه متغضنة . هالها لأول مرة ماحدث ، فانسحبت مسرعة . فى الطريق سارت وسارت ، وعبرت طريق وآخر . تنبهت أخيراً . لقد تركت قصاصة الورق معه

وبها العنوان . فى عرض الطريق وقفت حائرة لاتدرى ماذا تفعل .

قصص المجموعة

صدر للمؤلف

أولاً ـ دراسات وأبحاث :

١ ـ اتجاهات القصة القصيرة فى الأدب العربى المعاصر .
٢ ـ لغة الشعر العربى الحديث .
٣ ـ فى مصادر التراث العربى .
٤ ـ مقالات فى النقد الأدبى .
٥ ـ اتجاهات الرواية العربية المعاصرة .
٦ ـ فى الأدب العربى المعاصر .
٧ ـ دراسات نقدية .
٨ ـ فى الأدب والنقد الأدبى .
٩ ـ الرؤيا الابداعية .

ثانياً ـ مجموعات قصصية :

١ ـ رحلة منتصف الليل .
٢ ـ اليتيم .
٣ ـ أحزان رجل تافه .
٤ ـ ايقاعات حزينة من زمن الموت .
٥ ـ مشاهد من عام الغربة .
٦ ـ أبواب الجحيم .

رقم الايداع بدار الكتب ٣٩٧٩ / ٨٩

مطبعة الانتصار
ELENtSAR PRESS
غلاف